الفصل الثانى

كريت تحت حكم العرب (٨٢٣ ، ٨٢٥ — ٩٦١م)

كان لموقع الجزيرة الممتاز فى قلب البحر أثره القوى فى تحريك أطماع الغزاه يهوون إليها من كل فج وفى كل عصر ، فيبلغها الرومان ويسيطرون عليها دهراً ويقفوهم العرب فالبيزنطيون فالبنادقة ثم الأتراك العثمانيون ، حين رفعوا رايتهم عليها عند منتصف القرن السابع عشر الميلادى .

وكانت دولة « مينوس » Minos أول دولة يونانية عرفت بالجزيرة ، بلغت فى عهدها كريت مبلغاً عظيماً من الحضارة ومن أشهر آثارها « قصر مينوس » فى « كنوسوس .. »(١) ويعتبر من عجائب فن العمارة فى العالم القديم كشف عنه البريطانيون أوائل هذا القرن كما كشفوا عن أطلال كثير من المنشئات والمنازل وآثار تخطيط مدينة بأسرها . ويقسم العلماء عصور الحضارة المينوية ثلاثة عصور :

العصر المبكر ويمتد زمانه من حوالى ٢٨٠٠ إلى ١٨٠٠ ق. م ، وفيه ازداد عدد سكان الجزيرة ازدياداً ملحوظاً ، ونشأت مدن هامة على الساحل . وكانت أكثر المناطق رفاهية وازدهارا ما كان منها فى شرق الجزيرة ، على أن سهل مسارا فى الجنوب قد أصبح آهلاً بالسكان أيضاً . وترتب على تركيز السكان فى المدن والقرى تكوين طبقة من العمال المهرة المحترفين مما أدى إلى ازدهار الفنون ولا سيما صناعة الفخار .

---

(١) عندما زار الرحالة « باشلى » كريت عام ١٨٣٤ (أى أثناء الحكم المصرى فيها) وجد أن « كنوسوس » قد أصبحت تعرف بالحائط الطويل Makro-Teikho نسبة للحائط الأثرى الموجود بها (أنظر (Pashley,Vol. I, p. 204).) .

فتيسرت أمور الحياة ، وتحسنت طرق المواصلات ، وقويت صلات كريت بما جاورها من البلدان فتوثقت بمصر وليبيا ولئن كانت حياة الجزيرة قد دخلت فى طور التصنيع ، إلا أن الصناعة لم تعد الفخار ، فنحن لا نلحظ فى هذا العصر تقدماً فى الصناعات المعدنية ، كما كان فن النحت مايزال فى المهد ، وكانت الجزيرة فى ذلك العهد مقسمة ثلاثة أقسام موزعة بين الشرق والجنوب والوسط من أرضها وقد بدأ كل منها مستقلاً عن نظيريه . فأما العصر المينوى الوسيط (وزمانه من حوال ١٨٠٠ — ١٥٥٠ ق. م) فيتميز بميزتين على جانب عظيم من الأهمية ، نشأة القصور ووحدة الثقافة مع بعض الاختلافات المحلية الناشئة عن صعوبة الاتصال بين أنحاء الجزيرة . وفى خلال هذين القرنين المزدهرين ، بدأ التقسيم الثلاثى يتلاشى . وأخذ السكان ينتشرون فى المناطق الواقعة غربى جبل « إيدا » Ida وكانت « كنوسوس » على الرغم من تعدد الولايات القائمة فى الجزيرة تقوم منها مقام المركز السياسى الأول . ومن المحتمل أن تكون « فايستوس » Phaestos وكانت موطن الحضارة فى جنوب الجزيرة قد احتفظت فى ذلك العهد باستقلالها وتشابهت طرق البناء فى أنحاء الجزيرة المختلفة مما يشير إلى أن الثقافة المينوية قد أصبحت وحدة متماسكة ، وظهرت العجلة المستعملة فى صناعة الفخار وازدهرت صناعة تلوين أوانى الزهور الفخارية ازدهاراً عظيماً ، وزاد الثراء فى أنحاء الجزيرة نتيجة لازدهار التجارة ، ونجح المينويون — لبعدهم عن أخطار الحروب ، ويقيهم البحر شرها ويحميهم من أطماع المغيرين — فى السيطرة على امبراطورية تجارية واسعة النطاق . وكانوا فى طريقة تكوينها يشبهون بريطانيا فيما اتبعته من وسائل لبناء امبراطوريتها . وفى مطلع العهد المينوى المتأخر حوالى (١٥٥٠ — ١١٠٠ ق. م) أصبحت كريت قوة عالمية ، وكادت من هذه الناحية تتساوى مع مصر ومملكة الحيثيين . ومن ثم أصبحت « كنوسوس » مركزاً لنظام بيروقراطى واسع النطاق ، واستطاع صاحب كريت من عاصمة ملكة « كنوسوس » أن يمد سلطانه على شعوب كثيرة عبر البحار وأضحى « قصر

مينوس » مقاماً للملك وداراً للادارة المركزية فى وقت معاً وفى منتصف الألف الثانية بلغت هذه الأمبراطورية أوج عظمتها ، وهنالك بدأت سنة الزمن والتاريخ تتضح فى حياة الأمبراطورية فأقبلت عليها كقطع الليل يدافع بعضها بعضا ، تكالبت عليها المصائب من كل جانب ، وبدأ الخراب يدب فى بنائها ، فاندكت القصور وعمت الحرائق فى مختلف أنحاء الجزيرة وبخاصة فى « كنوسوس » و « فايستوس » والمؤرخون يختلفون فى أسباب هذا الخراب(١) وإن كان من المرجح أنه لم يكن نتيجة غزو خارجى ، وإنما هى فترة فتن واضطرابات داخلية أشبه ماتكون بتلك التى أدت إلى إنهيار الدولة القديمة فى تاريخ الفراعنة .

ومهما يكن من شىء فإن حضارة كريت لم يقدر لها الموت ، فلم تلبث حتى ازدهرت من جديد بين يدى أسرة جديدة نجحت فى السيطرة على تل « كنوسوس »(٢) .

على أن شياطين الفتنة لم تكن قد نامت فى المدينة ، وجذور الخلاف لم يكن قد قضى عليها تماماً ، مما هيأ للرومان الطريق إلى التدخل فى شئون الجزيرة ومن قبل كانوا منذ أوائل القرن الثانى قبل الميلاد قد سيطروا على مقدونية وسورية تارة بسلاح الحرب وأخرى بأساليب السياسة ثم ازداد تدخلهم فى أمور كريت واتضحت آثاره ، ولا أدل على ذلك من أنهم نجحوا فى أيام القرن الثانى نجاحاً مكن لهم من التدخل فى شئون الجزيرة الداخلية مستغلين نفوذهم فى خدمة مصالحهم ، وأعانهم على ذلك النضال المتصل بين Gortyna و Cnossos ولما كانت الحرب المقدونية الثانية (١٧١ — ١٨٦ ق.م) أعلنت مدائن الجزيرة حيادها ثم أخذت بعد ذلك تعلن تحررها من النفوذ الرومانى ، وبانت آثار ذلك فى تحيز فريق منها لأحد الخصمين المتحاربين ، وتحيز الفريق الثانى للخصم الآخر . وباتت جميعاً تحترف القرصنة وانهمت فى تزويد الخصمين المتحاربين بالجنود المرتزقة .

---

(١) L. Cottrell, *The Bull of Minos*, pp. 184-186 (3rd ed. 1960).

(٢) J. B. Bury, *History of Greece*, p. 9 (London 1938)

أما السبب المباشر الذى دفع الرومان إلى محاربة الكريتيين فهو مابدا لهم من ممالأة الكريتيين « لمثريديت » Mithridates ملك « بارثيا » وامداده بالجنود المرتزقة ، والتشجيع على أعمال القرصنة ، واستمات أهل الجزيرة فى رد عدوان الرومان ، ونجحوا آخر الأمر فى عقد صلح لم يكن مرضياً للرومان وكان ذلك فى عام ٧١ ق. م ونقض العهد حين تقدم الرومان بمطالب لم يرض الكريتيون بقبولها .

هنالك غضب الرومان وبعثوا على الجزيرة بجيش عقدوا إمارته « لمتيلاس » Mettellus الذى استطاع بوسائل العنف أن يحقق أغراض أمته فى احتلال الجزيرة فى عام ٦٧ ق. م ، وذلك بعد نضال وحشى مرير دام ثلاثة أعوام كاملة وقام فيه الكريتيون مقاومة الأبطال(١) ومنذ ذلك الوقت عدت كريت ولاية رومانية ، ثم هان أمرها على الرومان فلم تلبث غير قليل حتى ألحقت إدارياً بإمارة برقة ، ثم انتقلت بعد ذلك أيام الأمبراطور قسطنطين فألحقت بولاية « ايلليريا » وظلت جزءاً من الأمبراطورية الرومانية حتى أخذها العرب المسلمون فى عام ٨٢٣م فعدت منذ ذلك الوقت وكراً للقرصنة ، وسوقاً لتجارة الرقيق ، وظلت تتصدى لكافة الجهود التى بذلتها الأمبراطورية البيزنطية بغية استخلاصها من أيدى العرب أكثر من أربعة أجيال . وفى عام ٩٦٠م استطاع نقفور فوقاس « أن يأخذها من أيدى العرب وظلت تحت سلطان بيزنطة إلى أن أخذها البنادقة فى عام ١٢٠٤م فبسطوا عليها سلطانهم أكثر من أربعة قرون . ثم أخذ العثمانيون

---

(١) R. F. Willetts, *Aristocratic Society in Ancient Crete*, pp. 237-241 (London 1955).

كانت مقاومة الكريتيين عنيفة وصادقة وليس أدل على ذلك من أن الجزيرة حين سقطت فى أيدى الرومان وجدوها وقد كادت تخلو من سكانها ، كما أن الرومان أنفسهم عدوا انتصارهم على الكريتيين شيئاً عظيماً فنحوا قائدهم الفاتح لقب Creticus (الكريتى) كما فعلوا من قبل عندما أسموا قائدهم Scipio الذى غلب هانيبال فى موقعة زاما سنة ٢٠٢ ق. م Africanus (الأفريق) أنظر Finlay, Vol. I, p. 22.

see also A. Softazadé, *La Crète sous la domination et suzeraineté Ottomanes* (Paris, 1902), pp. 1-2.

فى عام ١٦٦٩ ، ورفعوا رايتهم عليها قرنين ونصف قرن . ثم آلت من ذلك إلى اليونان .

قصة استيلاء العـرب على كريت

كان لظهور الإسلام أثر فى تغيير مجرى التاريخ فى حوض البحر المتوسط ، فبسقوط الإسكندرية تحت راية المسلمين عام ٦٤١ م تبدل الحال غير الحال ، وبدأت فى تاريخ البحر مرحلة جديدة ذلك لأن انتشار الإسلام فى الأقطار الواقعة على سواحل البحر قد أيقظ فى الشعوب وعياً جديداً وبخاصة فى سورية وفلسطين ومصر وشمال أفريقيـة ، وما زالت آثار ذلك الوعى — على الرغم من كافة المحاولات التى بذلتها دول الاستعمار للقضاء عليها بمختلف الوسائل — تمثل الحقيقة الواقعة فى الفـكر العربى والعنصر الأساسى فى الحياة العربية كافة فى تلك الرقعة العريضة من العالم اليوم .

كانت حاجة العرب إلى تأمين حياتهم الجديدة ، والدفاع عما كسبت أيديهم من ملك تدفعهم إلى البحر دفعاً قوياً فإذا كان وعيهم الجديد قد أمكنهم من زمام ما ملـكوا فى البر فقد كان زمامه البحرى ما يزال فى قبضة بيزنطة . ومن المرجح أنهم لم يدركوا عواقب هـذا الخطر إدراكاً كاملاً حتى عام ٦٤٥ م ذلك عندما يبعث البيزنطيون بحملة بحرية إلى شواطىء مصر استطاعت أن تسترد الاسكندرية . وكان على العرب أن يقاتلوا فى سبيل إجلاء البيزنطيين عنها قتالا عنيفاً .

لقد كان معاوية أول من بنى أسطولاً عربياً ، ثم ساقه فى البحر على جزيرة قبرص عام ٦٤٨م فاستولى عليها فى سهولة ويسر . وكان هذا أول الحلقة فى سلسلة الانتصارات البحرية التى أحرزها العرب . وفى عام ٦٥٢ أغارت حملة بحرية من سورية على تلك الجزيرة وعادت منها بغنائم عظيمة ، وفى نفس العام أغارت حملة

أخرى على جـزيرة رودوس وكان نصيبها النصر . وبعد ذلك بعامين حمل العرب مرة أخرى على جزيرة قبرص واحتلوها احتلالاً كاملاً .

وفى منتصف القرن الثامن الميلادى ، على وجه التحديد فى عام ٧٤٧م ، تنكر الحظ للعرب فى البحر وأدار وجهه لبيزنطة حتى جرت بين الفريقين على مقربة من قبرص معركة من المعارك الحاسمة أحاط فيها أسطول كريت البيزنطى بأسطول العرب وكان ضخماً قوامه ألف سفينة فهزمه هزيمة منكرة بحيث لم تنج من سفنه العديدة غير ثلاث لاذات بالفرار ، وهكذا انتهى أمر النضال البحرى بين بيزنطة والعرب ، كما اختفت قوة مصر البحرية أكثر من قرن وسكتت الأيام فلم تذكر من أخبار البحرية السورية نحو ربع قرن . ثم بدأت الأيام تتحدث بذكر الأسطول العربى السورى وتشير إلى نشاطه فى أواخر القرن التاسع الميلادى بين يدى ليو الطرابلسى(١) أما بيزنطة فقد احتفظت بسيادتها البحرية فى البحر الأبيض والأسود لمدة نصف قرن تبدأ بعد عام ٧٥٢ ، وبسطت نفوذها خلال ذلك على جزر صقلية ، وكريت وقبرص وسردينيه ، وجزر البليار ، كما استطاعت أن تتحكم فى المضايق ذات القيمة البحرية الهامة الواقعة على طريق التجارة البحرى بين الشرق والغرب . وفى مطلع القرن التاسع الميلادى أخذت الأمور تتغير حتى عجزت بيزنطة عن السيطرة على البحر ، وأهملت شأن أسطولها ، فى وقت أخذت فيه أقاليم لاصلة لها ببيزنطة تقوى أساطيلها وتدعم قواتها فى البحر ومنها الأندلس وسورية ، وشمال أفريقية والأمبراطورية الـكارولنجية(٢) .

ومن الطريف أن أعظم مغامرات الأسطول الأندلسى فى شرق البحر المتوسط قد وقعت حوالى عام ٨١٤ عنـدما اضطر فريق من العرب الأسبان يبلغ عددهم حوالى ١٥٫٠٠٠ إلى الهجرة على أثر ثورة عارمة وقعت فى ضواحى قرطبـة

---

(١) أنظر أرشيبالد و. لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى (فصل الغزو العربى ٦٤١ — ٧٥٢م) ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) أنظر نفس المرجع ، ص ١٥٨ ، ١٦٢ .

فى عهد الخليفة الأموى الحكم ، ويظهر أن هؤلاء اللاجئين قد وصلوا بأسطولهم إلى مصر دون أن يعترض طريقهم أحد من البيزنطيين أو العباسيين وبلغ أكثرهم الاسكندرية واستقروا فيها ، وهنالك اشتعلت نيران الحرب الأهلية فى مصر فشاركوا فيها وكانت الفوضى التى سادت مصر فى هذه الفترة مما ساعد هؤلاء على الاحتفاظ بسلطتهم والبقاء فى الاسكندرية ما يزيد على عشرة أعوام . ولكنهم طردوا منها فى النهاية بعد معركة برية بينهم وبين الوالى العباسى الذى هزمهم وصادف ذلك عهد تدهور فى أحوال الدولة البيزنطية التى حلت بها فى ذلك الوقت المصائب من كل جانب ، وفقدت مركزها البحرى فى حوض البحر المتوسط ، وقد تسبب هذا كله عن ثورة « توماس » الصقلبى بين عامى ٨٢١، ٨٢٣ التى كانت إيذاناً باندلاع الحرب الأهلية . أصابت هذه الحرب قوة القسطنطينية فى البحار بالضعف البين وقد استمرت تعانى نتائجه على الرغم من هزيمة ذلك الثائر فى النهاية فى عام ٨٢٣ . تنبه العرب الوافدون على الاسكندرية من الأندلس لهذه الحقيقة ، فعبروا البحر على أثر هزيمتهم على يد الوالى العباسى إلى كريت ، فنزلوها دون مقاومة ، واتخذوا منها مستقراً فى عام ٨٢٣ . ولم يستطع امبراطور بيزنطة أن يزحزحهم عنها ولما نجح المأمون فى إطفاء نيران الفتنة الأهلية فى مصر ، بعث ببقية المهاجرين إلى الجزيرة ، فبلغوها عام ٨٢٥ تحت قيادة أبى حفص(١) وكان قد جمع لنقلهم أربعين سفينة هنالك أظلتها راية المسلمين الذين قرروا منذ ذلك الوقت أن يتخذوا منها موطناً(٢) .

---

(١) أبو حفص عمر البلوطى البطروجى الأقريطشى من بطروج فى « فحص البلوط » (وهى فى شمال قرطبة فى جبال سيرا مورينا) شيخ الريفيين الذين طردهم الحكم الأول الربضى عام ٨١٤م من ضاحية ربض فى الجنوب الغربى من قرطبة « واستوطنوا مصر مدة طويلة وخاصة الأسكندرية ولما أجلاهم العباسيون من هذه المدينة أخضعوا أقريطش عام ٩٦١م . دائرة المعارف الإسلامية ، جزء أول ص ٣٢٦ — ٣٢٧ (ترجمة ١٩٣٣ طبعة ٢) .

(٢) وتوجد قصة الغزو العربى لكريت فى عدة مراجع منها .

Finlay, *History of Greece*, Vol. II, pp. 135-136.

وفى ارشيبالد الترجمة) ص ١٦٤ ، ١٦٨ — ١٦٩ (فى فصل السيادة البيزنطية ٧٥٣ — ٨٢٧م) . وفى دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء الثانى ص ٤٦٦ — ٤٦٧ .

ويزعم الكتاب البيزنطيون أن العرب عندما بلغوا شواطىء الجزيرة ونزلوا بها عمدوا إلى تحطيم أسطولهم(١) . وأقاموا لهم معسكراً ، وأمنوا جوانبه وحصنوه بالخندقة من حوله . ومن ذلك اليوم عرف المكان ، وما حوله باسم الخندق ، الذى حرفته السنة الغربيين إلى « قنديا » وظل الخندق ومن فيه مبعث رعب وفزع يرهب بحر إيجه ويزعج عرش بيزنطة طيلة قرن ونصف قرن(٢) ، يزيده قوة ما للجزيرة بحكم موقعها من مكان حربى ممتاز(٣) .

على أن العرب لم يلقوا من المقاومة يومئذ ما يقلقهم ، فأساطيل بيزنطة الأقليمية قد دمرت أثناء ثورة «توماس الصقلبى» قبل غزو العرب بأعوام قلائل ، وسكان الجزيرة كانوا يكرهون سادتهم فى القسطنطينية بسبب اختلاف المذاهب الدينية(٤) .

وواضح من ظروف هذا الغزو أن الذين قاموا به لم يكونوا قراصنة ولا هواة حرب ، وإنما كانوا قوماً شردتهم الفتن وأجلتهم عن ديارهم فى الأندلس فراحوا يطلبون وطناً جديداً يبغون فيه حياة مستقرة شأنهم فى ذلك شأن من تضطره

---

(١) إذا صح هذا الزعم — وليس بمستبعد ان يكون صحيحاً — فأغلب الظن أن العرب إنما فعلوا ذلك تيمناً بما فعله أسلافهم من قبل عندما بلغوا الأندلس تحت إمرة طارق بن زياد — ويؤيد هذا الرأى La Roche, *La Crète Ancienne et Moderne*, Paris, 1898, p. 44.

فهو يشير أنه عندما وطئت قدما أبى حفص أرض الجزيرة صاح فى جنده « ها هى الأرض الطيبة التى وصفها النبى بالبلد الذى يتدفق فيه اللبن والعسل . ثم أنزل بعد ذلك كافة قواته بالجزيرة فيما عدا عشرين جندياً فى كل سفينة وأصدر إليهم أوامره بإحراق كافة السفن وعندما سأله ضباطه عن السبب اكتفى بأن ذكر لهم « انى أمدكم بوطن تجدون فيه زوجات يحللن محل أولئك اللاتى تركتموهن ، وما عليكم إلا أن تتكاثروا وتمدونا بالخلف » .

(٢) كان بناء تلك الحصون التى غدت مع الزمن عواصم للحكم العربى من السنن المتبعة فى سياسة المسلمين إذا ما فتحوا فى الأرض فتحاً جديداً فهكذا فعلوا عندما فتحوا مصر على يد عمرو بن العاص وعندما فتحها الفاطميون أيام المعز ، وعندما فتحوا المغرب فشيدوا القيروان وفاس ، ومن قبل ذلك كله الكوفة وبغداد وإلى هذه الحقيقة يشير كذلك المؤرخ Finlay فى كتابه المذكور آنفاً ، الجزء الثانى ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٣) *Cambridge Medieval History*, Vol. IV, p. 36.

(٤) أنظر الارشيبالد لويس ، ١٦٩ — ١٧٠ .

ظروف العيش إلى الهجرة . وكان أكثرهم من الشباب فكافحوا فى سبيل العيش كفاحاً صادقاً وكونوا أسراً ، وجمعوا ثرواتوأقبل عظماؤهم على الزواج من سكان الجزيرة فاتصلت الأنساب ، وتوثقت روابط الدم ، وعمت المساواة ، وسادت الناس علاقات من الود والتعاون أدت إلى ازدهار الحياة فى الجزيرة إزدهاراً كان من شأنه أن يؤدى إلى طراوة العيش وازدياد عدد السكان بعد الذى أصابها من انحلال وتدهور ثم فقر ونقص بالغ فى عدد السكان(١) .

وكان لاستيلاء العرب على كريت وما تقدمه من إغارتهم على صقلية أثره الواضح فى تغيير وجه التاريخ فى حوض البحر المتوسط ، فقد أخذت السيادة على البحر تنتقل إلى أيدى المسلمين الذين انتشروا على سواحله الجنوبية من جبال طوروس إلى جبال البرانس ، وانتهت سيطرتهم على جزائر البحر ذات المواقع الهامة إلى تحقيق أغراض دفاعية فغدت كريت مرقباً وحصناً يرد منه العدوان عن مصر ، كما غدت صقلية حصناً لحماية شمال أفريقية ، فإذا شواطىء المسلمين تصبح فى أواخر القرن التاسع ولأول مرة منذ عام ٦٤٥ فى مأمن من كل عدوان . فلم يكد يمضى على استيلاء العرب على كريت خمسة أعوام حتى تم إخماد نار الفتن الداخلية فى مصر عام ٨٣٢م أى بعد اندلاعها أكثر من قرن من الزمان(٢) . وهكذا أصبحت كريت أقوى مراكز العرب البحرية فى شرق البحر المتوسط(٣).

وقد بذلت بيزنطة جهوداً متصلة لاسترداد الجزيرة فباءت جميعها بالفشل . حاول ميخائيل الثانى ذلك عقب هزيمة « توماس » فلم يفلح ، وفشلت الحملة التى قادها « فوتينوس » وفشلت حملة أخرى بقيادة كراتيراس حاكم إقليم « كبير هايوت » وكان قد جمع لها سبعين سفينة حربية من ولايته ومن بلاد اليونان ،

---

(١) Finlay, Vol. II, p. 136.

(٢) أنظر ارشيبالد لويس ، ص ٢١١و٢٤٩ و ٢٥٦ .

(٣) Astrogorskey, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956), Translated by Joan Huss, p. 252.

وبحر إيجه — واستطاع المسلمون رد هذه الحملات فاشلة كما قابلوها بإغارات على ساحل تراقية وجزر السيكاديز . وفى عام ٨٣٩ أحرز مسلمو كريت نصراً عظيماً على بيزنطة حين تمكنوا من تدمير أسطولها على مقربة من جزيرة فاسوس .

هنالك ذعر البيزنطيون ذعراً شديداً ، فجدوا فى تجهيز عمارة بحرية جديدة ضخمة لإخضاع المسلمين فى كريت الذين أصبحوا مصدر قلق وخطر شديدين على كيان بيزنطة ، وجعلوا إمارة هذا الأسطول لقائد يقال له « تيوكستوس » إلا أن التدابير المحكمة والمؤامرات التى قام بها أهل كريت قد عوقت ذلك الأسطول حتى من مغادرة موانيه .

وانتعشت البحرية البيزنطيـة فى زمان « فاسيل الأول » انتعاشاً بان أثره فى مياه بحر إيجه ، وفى مياه البحر المتوسط . فلما كان عام ٨٧٩ وجهت بيزنطة أسطولاً من أساطيلها الضخمة بقيـادة أمير البحر « نيكتاس » فظفر بالأسطول العربى الكريتى فى خليج كورنث وحطمـه . وكان من أثر ذلك أن استقر السلام فى بحر إيجه مدة تزيد على عشرين عاماً . وظلت عواصف الحرب والغارة ساكنة فى جو غرب كريت حتى عام ٩٠١م .

وفى هدوء العاصفة يستجمع عرب كريت قواهم يستعدون للحرب من جديد فإذا ما أظلهم عام ٩٠٤ استطاعوا أن يوجهوا أشد ضرباتهم إلى سالونيك ثانى مدن الأمبراطورية البيزنطية وعاونهم فى ذلك « ليو الطرابلسى » وأسروا من البيزنطيين ٢٢٠٠٠ ساقوهم إلى مختلف الأقطار الإسلاميـة ولما أرجعت هـذه الضربة قلب بيزنطة عزمت على الانتقـام لنفسها فبعثت على كريت عام ٩١٠ بقوة بحرية ضخمة ، كان مصيرها الفشل .

وباتت قندية مصدر قلق دائم ، وخطر دائم وظل الأمر يهدد كيان بيزنطة كذلك حتى عام ٩٢٣ حين ظفر القائد البيزنطى « رومانوس ليكابينوس »

بالمغامر الطربلسى « ليو » فحطم أسطوله على مقربة من جزيرة لمنوس(١) فحرر هذا الانتصار العظيم منطقة بحر إيجه من هجمات العرب مدة تزيد على عشرين عاماً ؛ وحوالى منتصف القرن العاشر (٩٤٩) عاود الأمل ببيزنطة فى القضاء على المسلمين ، فبعثت على كريت بحملة ضخمة بغية الاستيلاء على « قندية » قلعة المسلمين العتيدة ، فباءت بالفشل(٢) وبقيت كريت فى قبضة المسلمين . وهكذا أثبت المسلمون فى كريت أنهم أصلب عوداً ، وأشد بأساً وألد عداوة وأصر على القتال مما قدر لهم البيزنطيون .

وهكذا نجح العرب على قلتهم بفضل قوتهم وشجاعتهم ، وصبرهم على الشدائد وحبهم الملاحة وميلهم إلى العدل والمساواة فى الاحتفاظ بأغلى درتين فى تاج الأمبراطورية البيزنطية « كريت » و « صقلية » . ولم يجد سكان الجزيرتين وكلهم من اليونانيين ، ودينهم المسيحية ، وكثرتهم من أهل اليسار فى وجودهم تحت راية المسلمين غضاضة أو حرجاً . وذلك لأن التاريخ يعرف للعرب تسامحهم الكريم ، ويشهد أنهم ماغزوا قوماً ليذلوهم ، وما فتحوا من بلاد المسيحية بلداً دون أن يكون ذلك لاستغاثة من ظلم أواستعانة على محنة(٣) وهذا مؤرخ مسيحى يرى فى سيرة بعض الحكومات المسيحية من الظلم والجور والعسف ، والبعد عن العدل والمساواة وإهمال الكرامة الإنسانية عاراً لا يستطيع تاريخ الدنيا على مر العصور أن ينساه . وإذا كان التاريخ لم يستطع أن ينسى ذلك ، فهو لم ينس للعرب تسامحهم ووفاءهم بالعهد ، وصفاء نفوسهم من التعصب(٤) ويرجع احتفاظ العرب بجزيرة كريت هذا المدى الطويل إلى عجز الامبراطورية البيزنطية عن

---

(١) أنظر ارشيبالد لويس ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) أنظر للمصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٣) كان ذلك شأنهم عند فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، وعند فتح الأندلس بين يدى طارق بن زياد .

(٤) Finlay, Vol. II, p. 134

تدبير أمورها فلم تكن ظروف الأمن فيها لتسمح لها بالاستغناء عن جزء من قواتها المرابطة بالعاصمة وما حولها لتهاجم به الجزيرة وتحميها إن هي نجحت فى استردادها ، ثم إلى عوامل أخرى تعللت بها الأمبراطورية تغطية لعجزها ، وهى عدم اهتمام ساستها بجزيرتى كريت وصقلية ، نظراً لضآلة الفائض من مواردهما ، وثالث الأسباب سماحة العرب وسخاؤهم فيما أعطوا لأهل الجزيرة من حرية التصرف فى أموالهم على نحو لم يعرفوه تحت سلطان بيزنطة[١] .

نهاية سلطان العرب وقيام الحكم البيزنطى :

ولما كانت تجارة الرقيق إذ ذاك أشد ألوان التجارة رواجاً ، وأوفرها ربحاً فى حوض البحر المتوسط ، لم يجد العرب بدا من النزول إلى سوقها ، فكانوا أكثر التجار نشاطاً وأوفرهم حظاً من الربح ، وغدت الجزيرة بين أيديهم أكبر أسواق الرقيق ، وانتظمت تجارة الرقيق بين أيدى من أسلم من أهل الجزيرة الذين استطاعوا إقامة علاقاتهم التجارية مع أمثالهم من تجار الرقيق المسيحيين فى بيزنطة يردون عليهم الأسرى من أبناء الأسر الموسرة ، عن طريق البيع والبدل بغية الربح والتحرير[٢] . واقتضى احتراف هذا اللون من التجارة أن يكون بين العرب قراصنة مهرة دوخوا البيزنطيين بكثرة ماشنوا من غارات على ثغورها المختلفة حتى عوّقوا تجارتها ، وحتى بات سكان جزر الأرخبيل فى رعب دائم من سطوة قراصنة العرب ، وحتى اضطروا آخر الأمر إلى دفع أتاوة منظمة لحكام كريت من المسلمين ابتغاء مرضاتهم وتأميناً لتجارتهم .

وتنظر القسطنطينية فإذا تجارتها بائرة وأسواقها معطلة نتيجة لنشاط قراصنة الجزيرة[٣] وترى بين يديها قوة بحرية تم بناؤها أيام « رومانوس ليكابينوس » ، ففكرت فى مهاجمة معاقل القراصنة العربية فى كريت . فلما كان الصيف من

(١) *Ibid.*, Vol. II, p. 139.
(٢) *Ibid.*, Vol. II, p. 276.
(٣) *Ibid.*, Vol. II, p. 315 .

عام ٩٦٠ بعثت على كريت بأسطول ضخم قوامه ألفان من سفن الحرب وألف وثلثمائة وستون سفينة تحمل المؤن والذخائر . واحتاطت بيزنطة فبعثت ببعض أساطيلها إلى شرق البحر لتحول دون وصول أى عون يتحمل أن يتلقاه العرب من أعوانهم فى سورية بخاصة ، وفى الشرق العربى بعامه(١) . وحملت الأساطيل على قندية فلقى البيزنطيون من العرب مقاومة أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها خلعت على قائد الروم المنتصر « نقفور فوكاس "Nicephorus Phocas" صفة البطولة ، وتسقط عاصمة الجزيرة فى ٧ مايو ٩٦١ ، ويضع الروم أيديهم عليها بما توافر فيها من ثروات ضخمة من المال والرقيق جمعها القراصنة العرب بجهودهم المتصلة ، فحملت جميعها إلى القسطنطينية(٢) . ولم يرى الروم مكاناً يحكمون منه الجزيرة خيراً من ذلك المكان الذى اختاره العرب كما رأوا أن السيطرة على الجزيرة تقتضيهم الخلاص من العرب بالقضاء على البقية الباقية منهم ، فخربوا ديارهم ، وهدموا كافة معاقلهم فى قندية ، واختاروا إلى جوارها ربوة أقاموا عليها قلعة أسموها « تيمنوس » Temenos (٣) . وكانت قلعة حصينة منيعة بما كان حولها من أخاديد وأنهار ، كما كانت مزودة بينابيع تمدها بالماء ويجرى إليها من غير انقطاع .

وهكذا زالت دولة العرب فى الجزيرة ، وثبت الروم أقدامهم فيها ، يمدون عليها سلطانهم من قلعتهم تلك التى شاء القدر أن يجعلها ملجأ لدوق قندية أيام البنادقة عندما أعلن « ماركوسنودو » Marco Sanudo عصيانه على البندقية وتمكن من السيطرة على كبرى المدائن فى الجزيرة(٤) ثم تبقى آخر الأمر بقية

---

(١) ارشيبالد لويس ، ترجمة أحمد عيسى ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٢) Finlay, Vol. II, p. 318.

(٣) *Ibid.*, Vol. II, p. 318.

(٤) وهذا وقد أسمى البنادقة هذه القلعة « روكا » "Rhoka" أى الحصن ، وظلت تحمل هذا الاسم حتى زارها الرحالة باشلى أيام الحكم المصرى . أنظر الجزء الأول من كتاب باشلى ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

هزيلة من العرب مغلوبة على أمرها ، مسلوبة الحول والقوة لتحيى حياة منكرة سداها الرق ولحمتها الذل والهوان . وينصرف عنهم أهـل الجزيرة عن آخرهم فى الدين أربعة أجيال كاملة حين يرتدون إلى المسيحية بين يدى واحد من كهنتها يدعى نيكون Nikon[1] ويشعر سكان الجزيرة بمرارة الندم على استسلامهم لسلطان الروم ، وتمر أيام حياتهم حسرات على أيام العرب حين يشتد عليهم ضغط الروم فيطالبونهم بما لا قبل لهم به من المـال ، وتتكرر ثورتهم على الروم ويتزعمهم آخر الأمر زعيم لهم يقـال له كاريكاس Karykas فيحضهم على استئناف الجهاد بغية الحصول على الاستقلال . وإذ يبلغ أسطول الروم شواطىء الجزيرة يتخلى عنه أعوانه فيقع فى أيدى الروم ليحكموا عليه بالموت[2] .

---

(١) عندما وقعت الجزيرة تحت حكم العرب فى القرن التاسع الميلادى تحول غالبية سكانها إلى الإسلام وظلوا كذلك حتى سقوطها فى يد البيزنطيين فى ٩٦١ على أن بعض الأسر الموسرة من سكان قندية قد احتفظت سراً بالمسيحية على الرغم من جهرها بالإسلام فى ظل حكم العرب ومنها أسرة « كرموليدس » Kormulidhe من « كوزيه » Khuse فى سهل « مسارا » الخصيب

Pashley, Vol. I, pp. 104-105.

(٢) Finlay, Vol. III, pp. 50-60.